من "وصيّة زهير بن جناب لبنيه"

قالوا: أوصى زهير بن جناب بنيه فقال:

يا بَنِيَّ قَدْ كَبِرَتْ سِنِّي، وَبَلَعْتُ حَرْسًا مِنْ دَهْرِي، فأحكَمَتْني التَّجارِبُ، والأمورُ تَجْرِبَةٌ واخْتبارٌ، فَاحْفَظُوا عَني ما أقولُ وَعوهُ: إيَاكُمْ وَالْخور عِنْدَ المَصائِبِ، والتَّواكُلَ عِنْدَ التَّوائِبِ، فَإِنَّ ذلِكَ داعيّةٌ لِلْغَمِّ، وَشَماتَةٌ للعَدوِ، وَسوءُ ظَنِّ بالرَّبِّ. وإيَّاكُمْ أنْ تَكونوا بِالأَحْداثِ مُغْتَرَينَ، وَلها آمِنينَ، وَمِنْها ساخرينَ؛ فإنَّهُ ما سَخِرَ قَوْمٌ قَطُّ إِلَّا ابْتُلي؛ ولكنْ تَوَقَّعوها؛ فَإِنَّ الإنسانَ في الدُّنْيا غَرَضٌ تَعاوَرَهُ الرُّماةُ، فَمُقْصِّرٌ دونَه، ومُجاوزٌ لِمَوْضِعِهِ، وَواقِعٌ عَنْ يَمينِهِ وَشِمالِهِ، ثُمَّ لا بُدَّ أَنَّهُ يُصيبُهُ.

تحليل الوصيّة:

مناسبة الوصيّة : أحسّ زهير بن جناب بدنو أجله فجمع بنيه وأوصاهما هذه الوصية التي هي خاصّة تجربته الطويلة في الحياة إذ يقال إن زهير عمّر طويلا وعاش الكثير من التجارب وخاض الحروبات الكثيرة وكان يسمّى الكهّانة لصحة رأيه وحكمته، ولذلك عندما شعر باقتراب لحظة الموت وقرب مفارقته للحياة أراد أن ينقل لبنيه وصية تحمل العبر التي استخلصها من الحياة الطويلة.

**معاني الكلمات:**

* **حرسًا:** مدّة طويلة من الزمن.
* **أحكمتني:** جعلتني حكيمًا وسديد الرأي.
* **وعوه:** من "وعى يعي" أي افهموه وأدركوه.
* **الخَوَر:** الضعف والانكسار والانهزام.
* **التواكُل:** الاعتماد على الآخرين والاستسلام.
* **النَوائِب:** جمع نائبة، أي المصيبة.
* **داعية:** سبب.
* **الغَمّ:** الحزن والهم.
* **شماتة العدو:** فرح العدو بما يصيب الإنسان من مصائب وأحزان.
* **الأحداث:** وقائع الدهر.
* **مغترّين:** مخدوعين.
* **ساخرين:** هازئين ومستخفّين.
* **امرؤ:** رجل أو إنسان.
* **ابتُلي:** أصيب بمصيبة.
* **استعفوا منها:** احذروها وابتعدوا عنها وتجنّبوها.
* **غرض:** هدف.
* **تُعاوَره الرماة:** يتداوله رماة السهام ويرمونه واحدًا بعد الآخر.
* **مُقصّر دونه:** السهم لا يصل إلى الهدف ولا يصيبه.
* **مُجاوز لموضعه:** السهم يتجاوز الهدف ولا يصيبه.

شرح الوصيّة :

تقسم الوصيّة إلى ثلاثة أقسام رئيسيّة:

أ. إحالة إلى زهير بن جناب (قالوا : أوصى زهير بن جناب بنيه فقال) هذه الإحالة عبارة عن إسناد يدلّ على أنّ هذا القول شاع بين الناس وتداولوه لحسن معانيه ولكن لم يحددوا من الذي نقل هذه الوصية بالتحديد لا سيما وأن هذه الوصية خاصّة جدًا نقلت للبنين فقط ومنهما انتشرت وشاعت.

ب. المقدّمة : يبدأ زهير وصيته بالنداء للتنبيه، ويضيف ياء المتكلم لبنيّ حتّى يوكد على القرابة والصلة التي تربطه بهما . ويمهد للوصية من خلال قوله إنه قد كبر في العمر وكلما كبر الانسان بالعمر زاد تجربة وحنكة وخبرة في التعامل مع أحداث الحياة، ويؤكد هذا المعنى من خلال قوله وبلغت حرسًا من دهري، أي أنّه يوكد المعنى السابق" أنه كبر في السنّ " وتعمقت تجاربه وخبراته في الحياة . وبسبب هذا العمر الطويل" أحكمتني التجارب "أي أن تجارب الحياة منحتني الحكمة وسدادة الرأي وبعد النظر في أمور الحياة . و" الأمور تجربة واختبار "أي أن الرأي القويم والحكمة تستمد من التجربة، إن لم تجرب لن تكتسب المعرفة والدراية وبعد النظر . ويختم زهير بن جناب المقدمة بجملة إنشائيّة طلبيّة يأمر فيها ابنيه أن يحفظا ما يقوله بمعنى أن يحفظاه ويسيرا بحسبه ويفهمه ويدركا أهميته . وأسلوب الطلب مهم جدًا في الوصايا إذ إن الغرض من الوصية هو الوعظ والإرشاد فهو نتيجة تجربة عميقة في الحياة يريد الأب نقلها لولديه حرصًا عليهما وحتّى لا يقعا في بالتجربة،

هذه المقدمة القصية، أكدّ الأب لبنيه أن الوصية التي سينقلها لهما هي خلاصة تجربته مما يدلّ على أهمية ما سيقوله، وبهذا هيّأهما ذهنيًا لقبول النصائح والوصايا.

ج: المتن : يطلب زهير بن جناب من بنيه طلبين

- "إياكم والخوار عند المصائب والتواكل عند النوائب"، يستعمل زهير بن جناب أسلوب التحذير من خلال كلمة إياكم وهي تعتبر مفعولا به لفعل محذوف هو أحذر كذلك الخور يعتبر مفعولا به للفعل المحذوف احذر . يستعمل زهير هذا الأسلوب لينبه بنيه إلى ضرورة اجتناب الخور والتواكل، أي يحذرهما من الضعف والاستسلام وقت الشدائد بل يطلب منهما بشكل غير مباشر مواجهة الشدائد بقوة وثبات . ويحذرهما من التواكل أي الاعتماد على الآخرين في حلّ أزماتهم أي يحثهما على حلّ أزماتهما والخروج من مشاكلهما بنفسهما وألا يعتمدا على أحد فليس هنالك أفضل من نفس الإنسان ليقوم بالعمل بالطريقة المطلوبة والمرجوة.

ويعلل زهير بن جناب سبب نصيحته هذه بقوله إنّ الخور والتواكل يجلبان الهم والحزن ويشمتان الأعداء بكما، كذلك الخور والتواكل هما سوء ظن بالله بأن اللٰه لن يفرّج الهمّ ولن يخرجهما من الأزمة وهذا يدل على عدم الإيمان والثقة بقدرة اللّٰه على إخراج عباده من الأزمات كونه يخطط حياة كل فرد ويقوده إلى المسار الأفضل لحياته.

-" إياكم أن تكونوا بالأحداث مغترّين ولها آمنين ومنها ساخرين "يحذر زهير بن جناب بنيه من الاغترار بالدهر، أي الانخداع بما يقدمه الدهر من رخاء ومال وسعادة، ويحذرهما من الاطمئنان إلى الدهر والظنّ بدوام الحال، والسخرية والتهاون بالدهر وعدم التفكير بالمستقبل والأيام القادمة، فالدهر لا يؤتمن جانبه بحسب زهير.

يوضّح ويعلّل زهير سبب هذه النصيحة، بقوله إنّ كل من سخر من الدهر واستهان بالأيام القادمة، ولم يحسب حسابًا للمستقبل، واغتر بالسعادة الآنية، ابتلاه الدهر بنائبة ومصيبة جعلته يراجع كل حساباته، كذلك الأمر بالنسبة للحديث عن الناس والبشر فلا تسخروا من الناس فالله يبتليكم بعيوبهم التي سخرتم منها مرّة. ويستعمل زهير" لكن " للإستدراك فيقول اعملوا عكس ذلك أي احذروا الدهر وتقلبه وتوقعوا ضربات الدهر ومصائبه.

ويعلل كذلك السبب الذي يدفع الإنسان لتوقع الأزمات ووضعها ضمن الاعتبارات التي يواجهها . فيقول" فإنما الإنسان غرض تعاوره الرّماة فمقصّر دونه، ومجاوز لموضعه، وواقع عن يمينه وشماله ثم لا بدّ أنّه مصيبُه "أي أن زهير يشبه الإنسان بالهدف الذي يقف أمام رماة السهام، ورماة السهام كناية عن الدهر الذي يوقع الإنسان بالمصائب والمشاكل ويحاول عرقلة مسيرته، فقد يرمي الرماة سهامهم فتقصر ولا تصل إليه وتصل لمن قبله من البشر، وقد تتجاوزه الأزمات فتصل السهام إلى من بعده، وقد تجاوره السهام وتصل إلى من بجواره من البشر ولكن ولا بدَّ يومًا أن تصيبه سهام القدر فلا نجاة من سهام القدر ومصائبه، فالنازلة لا بد نازلة بالإنسان وستصيبه حتمًا يومًا ما ولذلك يدعو زهير ولديه لإستعداد لذلك فلا يدري الإنسان متى تصيبه سهام القدر وتوقع به الخسائر الكثيرة.

لا توجد خاتمة لهذه الوصية، بشكل عام تختم الوصية في العصر الجاهلي بتلخيص موجز لما ورد في الوصيّة والامنيات بالتوفيق والسير بحسبها، وفي العصر الاسلامي الرجاء بأن يوفقهم اللّه ليعملوا بحسب الكلام المدرج في الوصيَّة..

**الأساليب المستخدمة في الوصيّة هي:**

**1. الأسلوب الإنشائيّ والتّعابير الإنشائيّة والخطاب المباشر:**

* **النّداء:** "يا بُنيّ" — وياء المتكلّم هنا لنسبة الأبناء لوالدهم وتقريبهم منه.
* **الأمر:** "احفظوا، استعفوا، توقّعوها".
* **التحذير:** "إيّاكم والخَوَر والتواكُل"، "إيّاكم أن تكونوا بالأحداث مغترّين".

**أسلوب السجع:**

* **سجع ثنائيّ:** المصائب – النوائب.
* **سجع ثلاثيّ:** مغترّين – آمنين – ساخرين.

**الازدواج:**  
وهو إيراد جملتين لهما نفس المعنى: "كبرت سنّي وبلغت حرسًا من دهري"، "عند المصائب وعند النوائب".  
والغرض بشكل عام من تكرار المعنى هو الإقناع بأهمية الموضوع الذي يتحدث عنه الموصي.

**التفصيل:**  
أورد زهير جملة عامّة وفصّلها، الجملة العامّة: "الإنسانُ غرض تعاوره الرماة".  
التفصيل: بعض السهام تقصّر في الوصول "مقصّر دونه"، وبعضها الآخر تتجاوز الإنسان "مجاوز له"، وبعضها تقع عن يمينه وأخرى عن شماله "وواقع عن يمينه وشماله"، وبعضها يصيبه "ثمّ لا بد أنه مصيبه". أي أعطى زهير الاحتمالات الثلاثة التي قد تحدث عند رمي القدر لسهامه.

**الأساليب البلاغيّة:**

* **الطباق:** يمينه – شماله، مقصّر – مجاوز.
* **الكناية:**
  + الرماة: كناية عن مصائب الدهر ومشاكله.
  + مقصّر دونه: كناية عن المصيبة التي لا تصل الإنسان وتكون مقررة لمن هو قبله.
  + مجاوز له: كناية عن المصيبة التي تتجاوز الإنسان إلى غيره أي من هو بعده.
* **التشبيه:** الإنسان غرض تعاوره الرماة: أي شبه الإنسان بالهدف الذي يسعى الرماة لاصطياده والإيقاع به.

**إضاءات على أسئلة البجروت:**

1. **أسلوب الخطاب المباشر** باستخدام ضمائر الخطاب: "احفظوا"، "إياكم"، "إياكم أن تكونوا"، "استعفوا منها وتوقعوها...".  
   كذلك الأمر والطلب هي من أساليب الخطاب المباشر.  
   الغرض من استخدام هذا الأسلوب هو الإرشاد والتوجيه، لأن الوصايا من النصوص الإرشاديّة، ومن خلال الإرشادات تضمن وصول النّصائح التي تساعد على استيعاب وإقناع المتلقي.  
   فالتوجه المباشر للمخاطب يفرض استخدام ضمائر الخطاب المباشر، كذلك الأمر بما يجب ولا يجب مع إرفاقه بالتعليل المناسب يساهم في إقناع المتلقي، وكذلك منع وقوع المتلقي في الخطأ.
2. **استخدام أسلوب السجع:**  
   السجع: وهو توافق الفاصلتين في آخر ما تنتهي كل منهما من حروف.  
   والسجع فن معروف وأسلوب متبع في النثر الجاهليّ بشكل خاص، من خطب، حكم، وصايا ومواعظ.

**في الوصيّة:**  
أهميّة هذا الأسلوب للمتلقي تكمن في جذب اهتمامه وتشويقه لإكمال قراءة الوصيّة، وكذلك تساهم في الانتقال بشكل سهل بين المواضيع المختلفة في الوصيّة، بالإضافة إلى لفت انتباه المستمع بالإيقاع الصوتي الذي يميّز الوصيّة.

**3. استخدام العبارات والجمل القصيرة له أهمية كبيرة في الوصيّة:**

* البلاغة: الإيجاز، أي في الفترة الجاهلية كان لديهم الإيمان الثابت بإيصال المعنى بأقرب وأسهل الطرق وبشكل مباشر.
* حتّى يسهل على المتلقي تتبّع الوصيّة خاصة إن كانت شفويّة وغير مكتوبة، فإذا كانت الجملة طويلة نسي المتلقي للوصيّة بدايتها ولم يفهم المقصود منها ومعناها.

**4. استخدم زهير بن جناب أسلوب الشرح والتعليل لكل مطلب طلبه:**

* "إيّاكم والخَوَر عند المصائب والتواكُل عند النوائب، فإنّ ذلك داعية للغم وشماتة للعدو وسوء ظنّ بالربّ."
* "إيّاكم أن تكونوا بالأحداث مغترّين، ولها آمنين، ومنها ساخرين، فإنه والله ما سخر امرؤ قطّ إلا ابتُلي."
* "استعفوا منها وتوقّعوها، فإنما الإنسان في الدنيا غَرَض... لا بد أنه مُصيبُه."